فلسفة الأخلاق في إياك نعبد وإياك نستعين
"العبودية لله إشارات في الحرية"

The Moral philosophy in the Verse '' Thee do we worship and Thine Aid do we seek"
"Servitude to God is the path to freedom"

بكار الحاج جاسم[1]
جامعة يالوفا كلية العلوم الإسلامية تركيا
Bakkar71@hotmail.com

تاريخ الوصول 2020/12/11 القبول 2021/04/19 النشر على الخط 2021/11/30
Received 11/12/2020 Accepted 19/04/2021 Published online 30/11/2021

ملخص:

لقد أكرم الله تعالى الإنسان بالحرية حيث وهبه الإرادة والمشيئة من دون المخلوقات، وتلك هي الأمانة التي حملها الإنسان وكان ظلوماً جهولاً، وقد شغلتْ هذه المسألة بالَ الفلاسفة والمفكرين فقدَّموا دراسات مختلفة ومتناقضة بشأنها، وكذلك شغلت الفكر الكلامي في الإسلام ما بين الجبرية والقدرية، وأيضاً أخذتْ مساحة واسعة في الفكر الصوفي في تاريخ الإنسانية عامة وفي تاريخ الإسلام خاصة، واتجه الكلام عن الحرية في الوقت المعاصر اتجاهاً سياسياً حقوقياً، وقد أجمعت الأمم على انهاء العبودية "الرق"، وهذا ما كان يتشوف إليه الإسلام ويُرَغِّب فيه. إذن فالكلام في مسألة الحرية ليس سهلاً لتشعبها في الفكر الإنساني عموماً، ولهذا ركَّزت في هذا البحث على الناحية التأصيلية الأخلاقية، فأولاً نفهم معنى الحرية والعبودية في القرآن، فهو المصدر الموثوق الذي لا يأتيه الباطل، وانطلقت من الآية الجامعة، وهي قوله تعالى: إياك نعبد وإياك نستعين". هذه الآية التي يحفظها جميع المسلمين ويرددونها في صلاتهم المفروضة فقط سبع عشرة مرة، فهل أدركنا معناها ومغزاها؟ فنريد أنْ نبيِّن أثر هذه الآية خاصة وما ورد في معناها في الجانب الأخلاقي، وهذه الدراسة النظرية يطلق عليها علم الأخلاق أو فلسفة الأخلاق. والقرآن علومه لا تتناهي وعطاؤه يتجدد على الدوام.

الكلمات المفتاحية: فلسفة، أخلاق، الحرية، العبودية، الإنسان.

Abstract

God Almighty has honored humans with freedom and favored them with freedom of will and choice, unlike the other creatures, On the other hand the humans often betraying this honor by violating the Divine commandments, for they could be unjust and forgetful, this issue has aroused the interest of philosophers who presented various and contradictory studies on it, especially regarding the part of destiny and the inevitable in human life, and How they are related to freedom of choice. This issue also took up considerable space in Sufism from a humanitarian and Islamic perspective; there is also modern-day talk about freedom, which has taken a political and Human Rights perspective and all nations has already agreed to end slavery, which is what Islam calls for. The subject of freedom is undoubtedly a complex and controversial topic in human thought and therefore this research focuses on freedom from moral and religious concept, by explaining the meaning of freedom and slavery in the holy Qur'an as the Source of legislation for Muslims, This study also examines in depth the meaning of the Holy Verse : ''Thee do we worship and Thine Aid do we seek'', this verse that all Muslims memorize and repeat in their prayers at least seventeen times a day, and this research aims to clarify its meaning and moral philosophy.

Keywords: philosophy, ethics, freedom, slavery, man/ human being.

[1]- المؤلّف المرسل: بكار الحاج جاسم البريد الإلكتروني: Bakkar71@hotmail.com

1. مقدمة:

لقد أكرم الله تعالى الإنسان بالحرية حيث وهبه الإرادة والمشيئة من دون المخلوقات، وتلك هي الأمانة التي حملها الإنسان وكان ظلوماً جهولاً، وقد شغلتْ هذه المسألة بالَ الفلاسفة والمفكرين فقدَّموا دراسات مختلفة ومتناقضة بشأنها، وكذلك شغلت الفكر الكلامي في الإسلام ما بين الجبرية والقدرية، وأيضاً أخذتْ مساحة واسعة في الفكر الصوفي في تاريخ الإنسانية عامة وفي تاريخ الإسلام خاصة، واتجه الكلام عن الحرية في الوقت المعاصر اتجاهاً سياسياً حقوقياً، وقد أجمعت الأمم على انهاء العبودية "الرق"، وهذا ما كان يتشوف إليه الإسلام ويُرَغِّب فيه. إذن فالكلام في مسألة الحرية ليس سهلاً لتشعبها في الفكر الإنساني عموماً، ولهذا ركَّزت في هذا البحث على الناحية التأصيلية الأخلاقية، أي: نفهم معنى الحرية والعبودية في القرآن، فهو المصدر الموثوق الذي لا يأتيه الباطل، وانطلقت من الآية الجامعة، وهي قوله تعالى: إياك نعبد وإياك نستعين". هذه الآية التي يحفظها جميع المسلمين ويرددونها في صلاتهم المفروضة فقط سبع عشرة مرة، فهل أدركنا معناها ومغزاها؟ فنريد أنْ نبيِّن أثر هذه الآية خاصة وما ورد في معناها في الجانب الأخلاقي، وهذه الدراسة النظرية يطلق عليها علم الأخلاق أو فلسفة الأخلاق. فالقرآن علومه لا تتناهي وعطاؤه يتجدد على الدوام. لهذه الأهمية لمسألة الحرية اخترت بحثها وكشف ما يريده القرآن من الإنسان بشأنها، ومن أسباب دراستها أيضاً اهتمامي الخاص بالمقارنة بين القرآن والفلسفة وخاصة الفلسفة المشائية في الإسلام الذي تأثروا تأثيراً كبيراً بالفلسفة اليونانية. ولم أجد . بحسب اطلاعي . دراسة على هذه الطريقة وبهذه المعالجة، فعسى أنْ تقدم جديداً مفيداً. وسارت الدراسة على أكثر من منهج، فهناك المنهج الوصفي، والمقارن، والاستنتاجي. فأما خطة البحث فجاءت في مقدمة وتمهيد وأربعة مباحث وخاتمة، وفهرس للمصادر، فأما المقدمة فتناولتْ أهمية الموضوع، وسبب اختياره، والدراسات السابقة، والمنهج الذي سارتْ عليه، وخطة البحث. وأما المبحث الأول فتناول معنى الحرية والعبودية، وأما المبحث الثاني فتناول الحرية في القرآن، وأما المبحث الثالث فتناول حرية الإنسان وعالم الخلق والأمر، وأما المبحث الرابع فتناول حرية الإنسان في ظل عبوديته لله، وأما الخاتمة فتضمنتْ أبرز نتائج البحث.

2. تمهيد:

عبودية الإنسان للخالق ﷻ **حقيقة كونية**، فالإنسان لا يملك من أمره نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً...إلخ. ومشيئة الإنسان على الاختيار لا تخرجه عن حقيقة عبوديته! ذلك أنَّ مشيئته متعلقة بمشيئة الخالقﷻ: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾[الإنسان 30]. وحرية الاختيار بهذه المشيئة التي وهبها الخالقﷻ للإنسان لا تتجاوز دائرة التكليف، أي: الأمر والنهي. وإذا نظرنا في أنفسنا نلاحظ هذه الحقيقة، فمثلاً إذا نظرنا إلى دائرة الاختيار داخل جسم الإنسان، فهل له اختيار في عملية التنفس؟ وهل له اختيار في عملية الهضم؟ وهل له اختيار في عملية إخراج الفضلات؟ هذه بعض الأسئلة العامة، وعندما نشاهد الأفلام العلمية الموسوعية في شرح وتفصيل أفعال أعضاء الجسم نرى آيات الخلق الدالة على تدبير الخالقﷻ! وتلك من الحقائق المشار إليها في قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيد﴾[فصلت53].

ومثل عبودية الإنسان لخالقهﷻ كمثل إنسانٍ دعاه السلطان ليخدم في قصره، فهل هذه الدعوة تكليف أم تشريف؟ وهل تستوي حياة ذلك الإنسان في ذلك القصر وحياة أمثاله الذين خارج القصر؟ ثم كيف ستكون أفعاله وأخلاقه مع السلطان، ومع النفس،

ومع الناس؟ لا ريبَ أنَّ ذلك الإنسان يتمتع بحرية أوسع وهو في ظل السلطان، وبعد أنْ يذوق طعم الحرية والحياة الطيبة يحرص على مزيدٍ من القرب!

3 . الحرية والعبودية:

الحرية والعبودية لها جانبان: داخلي، وخارجي: فأما الجانب الداخلي فمتعلق بالصفات النفسية، فإما أنْ يكون الإنسان عبداً لتلك الصفات، وهو ما يعبَّر عنه باتباع الهوى، وإما أن يتحرر من سلطان الهوى ويتبع الحق، وقد أشار القرآن إلى ذلك، فقال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾[سورة الجاثية: 23]. وأما الجانب الخارجي فمتعلق بالناس والأكوان، فإما أنْ يكون الإنسان عبداً لغيره من الناس أو من الأكوان، وقد أشار القرآن إلى ذلك، فقال تعالى: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [سورة المائدة: 76]. وإما أن يتحرر من عبادة العباد بعبادة رب العباد، وقد أشار القرآن إلى ذلك في قصة إبراهيم عليه السلام: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (70) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ (71) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (72) أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (73) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (74) قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (75) أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ (76) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ (77) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (78) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (79) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (80) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ﴾[سورة الشعراء: 81.70]. فالإله الحق هو الذي يُكْسِبُ عبدَه النعم والخيرات، ولا يَكْسَبُ عليه، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (56) مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ (57) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [سورة الذاريات: 58.56].

1 .3 . معنى الحرية: الحُرُّ: بضمّ الحاء: خِلافُ العَبْدِ، والحُرُّ: خِيَارُ كلِّ شيْءٍ، وحُرُّ الفاكِهَةِ، خِيَارُهَا، والحُرُّ: كلُّ شيْءٍ فاخِرٍ من شِعْرٍ وَغَيره، ومن ذلك الحُرُّ بِمَعْنى الفَرَس العَتِيق الأَصِيل، يُقَال: فَرَسٌ حُرٌّ، وحُرُّ كلِّ أرضٍ: وَسَطُهَا وأَطْيَبُها. والحُرَّةُ: ضِدُّ الأَمَةِ، جمع حَرَائِرُ، وتَحْرِيرُ الكِتَابِ: تَقْوِيمُه وتَخْلِيصُه بإقامةِ حُرُوفِه، وتَحْسِينه بإصلاحِ سَقطِه، والتَّحْرِير للرَّقَبَةِ: إعتاقُهَا، والمحَرَّرُ الَّذِي جُعِلَ من العَبِيدِ حُرًّا فُعْتِقَ، وتَحْرِيرُ الوَلَدِ أَن يُفْرِدَه لطاعةِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ، وخِدْمةِ المسْجِدِ[1]. والحريّة ضربان: الأول: مَنْ لم يجر عليه حكم الشيء، يشير إلى هذا قوله تعالى:﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾ [النساء92]. والثاني: مَنْ لم تتملكه الصفات الذميمة، من الحرص والشّره على المقتنيات الدنيوية، يشير إلى هذا قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [آل عمران: 35]. فقوله:" مُحَرَّرًا " أي: مخلصاً للعبادة.

2 .3 . معنى العُبُودِيَّةُ: العُبُودِيَّة: إظهار التَّذلُّل، والعِبَادَةُ أبلغُ منها؛ لأنها غاية التذلل، ولا يستحقها إلا من له غاية الإفضال، وهو الله تعالى، ولهذا قال تعالى:﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء:23]. والعِبَادَةُ ضربان: الأول: عِبَادَةٌ بالتّسخير: وهو للإنسان والحيوانات والنّبات، وعلى ذلك قوله: {وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ} [الرعد:15]. **والثاني: عِبَادَةٌ بال**اختيار: وهي لذوي النطق، وهي المأمور بها في نحو قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:21][2].

(1) **زبيدي** (محمّد بن محمّد مرتضى الزَّبيدي (ت 1205هـ)، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق مجموعة من المحققين، دار الهداية. 10/ 573.

(2) انظر: **راغب** (أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (ت 502هـ)، المفردات في غريب القرآن، تحقيق صفوان عدنان الداودي، دار القلم والدار الشامية بدمشق وبيروت، ط1/ د/ت. مادة عبد.

3 .3 . الحرية عند أهل التحقيق: أفرد **القشيري** باباً خاصاً في حقيقة الحرية، صدَّره بقوله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: 9]. قال: "إِنَّمَا آثروا عَلَى أنفسهم لتجردهم عما خرجوا منه وآثروا بِهِ". ثم قال: "الحرية أَن لا يَكُون العبد تَحْتَ رقِّ المخلوقات، ولا يجرى عَلَيْهِ سلطان المكونات، وعلامة صحته: سقوط التمييز عن تنبيه بَيْنَ الأشياء، فيتساوى شدة أخطار الأعراض؛ قال حارثة رضى الله عنه لرسول اللهﷺ: عزفت نفسي عن الدنيا، فاستوى عندي حجرها وذهبها"[1]. وقال أيضاً: "واعلم أَن حقيقة الحرية فِي كمال العبودية، فَإِذَا صدقت لله تَعَالَى عبوديته، خلصت عَن رق الأغيار حريته...؛ وأن الَّذِي أشار إِلَيْهِ الْقَوْم من الحرية هُوَ أَن لا يَكُون العبد بقلبه تَحْتَ رق شَيْء من المخلوقات لا من أعراض الدنيا ولا من أعراض الآخرة فيكون فرد الفرد لَمْ يسترقه عاجل دنيا، ولا حاصل هوى، ولا آجل منى، ولا سؤال، ولا قصد، ولا أَرَبٌ، ولا حَظٌّ". ثم ذكر بعض أقوال العلماء فِي الحرية: 1. قول أبي عَلِيّ الدقاق: "من دَخَلَ الدنيا وَهُوَ عَنْهَا حر، ارتحل إِلَى الآخرة وَهُوَ عَنْهَا حر". 2. قول الجنيد: "إنك لا تصل إِلَى صريح الحرية وعليك من حقيقة عبوديته بقية". 3. قول بشر الحافي: "مَنْ أراد أَن يذوق طعم الحرية ويستريح من العبودية فليطهر السريرة بينه وبين الله تعالى"[2]. وقال **الغزالي**: "وأما الحرية فالخلاص من أسر الشهوات"[3]. وقال ابن عطاء الله: "وأشرف الحرية الخروج عن رؤية النفس ودعواها بالكلية"[4]. هذا عن معنى الحرية في اللغة وفي الاصطلاح، وفي المجربات السلوكية، فأما معنى الحرية في القرآن فنتكلم عنه في الآتي:

4 . الحرية في القرآن:

وردت كلمة الحرية في ثلاث صيغ: فوردت اسماً، في قوله تعالى: ﴿الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ﴾ [سورة البقرة178]. ومعنى الحر هنا خلاف العبد، بدليل المقابلة حيث ذكر بعدها العبد. ووردت مصدراً في قوله تعالى: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾ [سورة النساء92]. جاء المصدر "تحرير" في هذه الآية ثلاث مرات، وجاء مرة في سورة المائدة الآية189، ومرة في سورة المجادلة الآية3. ومعنى التحرير في هذه الآيات: الإعتاق، أي: إطلاقها من قيد الرق[5]. ووردت مشتقاً في قوله تعالى: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾ [سورة آل عمران35]. أي: معتقاً لخدمة بيت المقدس، لا يدٌ لي عليه، ولا أستخدمه[6]. والمعنى الجامع للحرية في هذه الآيات أنها خلاف العبودية، والعبودية تعني: الذُّلُّ والخُضُوعُ[7]. وقد ضرب القرآن بعض الأمثلة في بيان حقيقة الحرية والعبودية، منها:

1 .4 . المثل الأول: قال تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة النحل: 75]. هذا المثل واضح في أذهان الناس؛ لذلك لم يذكر

---

(1) جاء في المعجم الكبير للطبراني: عَنِ الْحَارِثِ بْنِ مَالِكٍ الْأَنْصَارِيِّ أَنَّهُ مَرَّ بِرَسُولِ اللهِﷺ فَقَالَ لَهُ: كَيْفَ أَصْبَحْتَ يَا حَارِثُ؟ قَالَ: أَصْبَحْتُ مُؤْمِنًا حَقًّا. فَقَالَ: انْظُرْ مَا تَقُولُ؟ فَإِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ حَقِيقَةً، فَمَا حَقِيقَةُ إِيمَانِكَ؟ فَقَالَ: قَدْ عَزَفَتْ نَفْسِي عَنِ الدُّنْيَا، وَأَسْهَرْتُ لِذَلِكَ لَيْلِي، وَاظْمَأَنَّ نَهَارِي، وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى عَرْشِ رَبِّي بَارِزًا، وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى أَهْلِ الْجَنَّةِ يَتَزَاوَرُونَ فِيهَا، وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى أَهْلِ النَّارِ يَتَصَاغَوْنَ فِيهَا. فَقَالَ: يَا حَارِثُ عَرَفْتَ فَالْزَمْ. ثَلَاثًا". مَنْ اسمه الحارث، الْحَارِثُ بْنُ مَالِكٍ الْأَنْصَارِيُّ. **طبراني** (سليمان بن أحمد الطبراني (ت: 360هـ)، المعجم الكبير، تحقيق فريق من الباحثين بإشراف وعناية د سعد بن عبد الله الحميد ود خالد بن عبد الرحمن الجريسي.

(2) عبد الكريم بن هوازن القشيري (ت 465هـ)، الرسالة القشيرية، تحقيق الإمام الدكتور عبد الحليم محمود، والدكتور محمود بن الشريف: دار المعارف، القاهرة. 371/1.

(3) **غزالي** (محمد بن محمد أبو حامد الغزالي (ت 505هـ)، إحياء علوم الدين: دار المعرفة بيروت، 1402هـ/1982م. 284/3.

(4) انظر: **عطاء** (أحمد بن محمد ابن عبد الكريم (ت709هـ)، القصد المجرد في معرفة الاسم المفرد، مكتبة مدبولي بالقاهرة، ط2002/1م: 42.

(5) انظر: **نسفي** (أبو البركات عبد الله بن أحمد النسفي (ت 710هـ) مدارك التنزيل وحقائق التأويل، حققه وخرج أحاديثه يوسف علي بديوي، راجعه وقدم له محيي الدين ديب مستو، دار الكلم الطيب، بيروت، ط1/ 1419هـ/ 1998م: 384/1 .

(6) انظر: المصدر السابق. 250/1 .

(7) انظر: الزبيدي: تاج العروس: 330/8 .

الجواب على السؤال الوارد في الآية، فكل إنسان يعلم بالبداهة عدم المساواة بين الأحرار والعبيد! وقد ذكر **الرازي** قولين في معناه: "**القول الأول**: أن المراد أنا لو فرضنا عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء، وفرضنا حراً كريماً غنياً كثير الإنفاق سراً وجهراً، فصريح العقل يشهد بأنه لا تجوز التسوية بينهما في التعظيم والإجلال، فلما لم تجز التسوية بينهما مع استوائهما في الخلقة والصورة والبشرية، فكيف يجوز للعاقل أن يسوي بين الله القادر على الرزق والإفضال، وبين الأصنام التي لا تملك ولا تقدر ألبتة. **والقول الثاني**: أن المراد بالعبد المملوك الذي لا يقدر على شيء هو الكافر، فإنه من حيث إنه بقي محروماً عن عبودية الله تعالى وعن طاعته صار كالعبد الذليل الفقير العاجز، والمراد بقوله: "ومن رزقناه منا رزقاً حسناً" هو المؤمن، فإنه مشتغل بالتعظيم لأمر الله تعالى، والشفقة على خلق الله، فبين تعالى أنهما لا يستويان في المرتبة والشرف والقرب من رضوان الله تعالى"[1]. فإنْ قيل: أي شيء استحق الحمد في هذا المثل حتى قال: "الْحَمْدُ لِلَّهِ"؟ يقال: إنَّ الحمد هنا متعلق بالجواب المحذوف، أي: لا يستوون، فالحر ليس كالعبد! فالحمد لله الذي خلق الإنسان حراً، لا سلطان لأحدٍ على قلبه ولا على عقله، فيحبُّ ما يشاء...! ويعتقد ما يشاء...! فهذه من أعظم النعم الربانية على الإنسان؛ ولكن أكثر الناس لا يعلمون هذا الإكرام الرباني وقد استرقتهم الأهواء والشهوات، وكذلك استرقتهم العادات والتبعية للأسياد الذين لا يملكون من أمرهم شيئاً إلا بإذن الخالقﷻ!

2. 4 . المثل الثاني: قال تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة الزمر: 29]. أي: ما تقولون في رجل من المماليك قد اشترك فيه شركاء بينهم اختلاف وتنازع، كل واحد منهم يدعي أنه عبده، فهم يتجاذبونه في حوائجهم، وهو متحير في أمره، فكلما أرضى أحدهم غضب الباقون، وإذا احتاج في مُهِمٍ إليهم، فكل واحد منهم يرده إلى الآخر، فهو يبقى متحيراً لا يعرف أيهم أولى بأن يطلب رضاه، وأيهم يعينه في حاجاته، فهو بهذا السبب في عذاب دائم وتعب مقيم، ورجل آخر له مخدوم واحد يخدمه على سبيل الإخلاص، وذلك المخدوم يعينه على مهماته، فأي هذين العبدين أحسن حالاً وأحمد شأناً! فيبقى ذلك المشرك متحيراً ضالاً، لا يدري أي هؤلاء الآلهة يعبد وعلى ربوبية أيهم يعتمد، وممن يطلب رزقه، وممن يلتمس رفقه، فهمه شفاع، وقلبه أوزاع، أما من لم يثبت إلا إلهاً واحداً، فهو قائم بما كلفه، عارف بما أرضاه وما أسخطه، فكان حال هذا أقرب إلى الصلاح من حال الأول، وهذا مثل ضرب في غاية الحسن في تقبيح الشرك وتحسين التوحيد[2]. وقد نبَّه يوسفعليه السلام صاحبي السجن إلى هذه الحقيقة، فالتوجه إلى ربٍّ واحدٍ، هو الخالق الحاكم القاهر خيرٌ من التشتت والتبعية لأرباب متعددة، لا تملك شيئاً، فهي مفتقرة في وجودها وإمدادها إلى فاطرها الحقﷻ، قال تعالى: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (39) مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة يوسف:39، 40]. إذن فالعبد لا يقدر على التصرف في شيء دون إذن سيده، ومن ثَمَّ فالحرُّ هو القادر على التصرف فيما يملك؛ ويستنبط من ذلك أن حرية الإنسان تقوم على عنصرين: **الملك، والقدرة على التصرف فيما يملك**، وذلك ليس للإنسان بالذات، بل بتمليك الخالق سبحانه وتعالى، فهو الذي أقدره وملَّكه، وعوارض النقصان فيهما كثيرة، وتنتهي بالموت، إذن فمصدر حرية الإنسان من فاطره، ولا

(1) **رازي**، (محمد بن عمر أبو عبد الله فخر الدين الرازي (ت 606هـ)، مفاتيح الغيب، دار الفكر بيروت: د/ط د/ت: 246/20.

(2) انظر: **زمخشري** (محمود بن عمر أبو القاسم جار الله الزمخشري (ت 528هـ) الكشاف، دار الكتاب العربي ببيروت، ط3/ د/ت: 124/4، والرازي: مفاتيح الغيب: 450/26.

يمكن الخروج عن عبوديته له، وقد قضى الله تعالى أنْ يحرره من رقِّ الأغيار على إخلاصه في العبودية لله تعالى، أي: التحقق بـ **"لا إله إلا الله"**، اعتقاداً وقولاً وعملاً، فلا معبود في الوجود إلا اللهﷻ، والعبادة والعبودية مقامٌ عالٍ شريفٌ.

ومن الأدلة النقلية والعقلية على ذلك: **أولاً**: قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ (97) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (98) وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [سورة الحجر: 99.97]. **ثانياً**: قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [سورة الإسراء: 1]. لمَّا وصف الله تعالى رسولهﷺ بالعبودية في أعلى مقامات المعراج، دلَّ على أنَّها أشرف المقامات! **ثالثاً**: قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ [سورة مريم: 30]. إنَّ عيسىعليه السلام أول ما نطق نطق بالعبودية، فدلَّ على شرفها وعلو مقامها!

ودليل العقل كما قال **الرازي**: "وأما المعقول فظاهر؛ وذلك لأن العبد محدث ممكن الوجود لذاته، فلولا تأثير قدرة الحق فيه لبقي في ظلمة العدم وفي فناء الفناء ولم يحصل له الوجود فضلاً عن كمالات الوجود، فلما تعلقت قدرة الحق به وفاضت عليه آثار جوده وإيجاده حصل له الوجود وكمالات الوجود، ولا معنى لكونه مقدور قدرة الحق ولكونه متعلق إيجاد الحق إلا العبودية، فكل شرف وكمال وبهجة وفضيلة ومسرة ومنقبة حصلت للعبد فإنما حصلت بسبب العبودية، فثبت أن العبودية مفتاح الخيرات، وعنوان السعادات، ومطلع الدرجات، وينبوع الكرامات"[(1)].

5 . حرية الإنسان وعالم الخلق والأمر:

الإنسان مخلوق كسائر المخلوقات التي ترتبط بنظام السببية الكونية؛ لا يمكن أن يخرج عن ذلك النظام، وكل إنسان يدرك أنه لم يكن شيئاً مذكوراً ثم خُلِق وصار له ذكر ووجود، وكذلك يدرك أن حياته ستنتهي بالموت، فهو إذن محكوم عليه بالمبدأ والمعاد: يقول تعالى في شأن المبدأ: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا﴾ [سورة الإنسان: 1]. ويقول تعالى في شأن المعاد: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [سورة العنكبوت: 35]. فالإنسان لا يملك من أمره شيئاً في مسألة الحياة والموت، ولكن ماذا عن شأنه ما بين الحياة والموت؟ هذا ما نعرفه من خلال الكلام عن عالم الخلق والأمر، فالقرآن تكلم عنهما كثيراً، مستدلاً بذلك على وحدانية الخالقﷻ وتفرده بالخلق والأمر، ومن الآيات الجامعة في ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [سورة الأعراف: 54]. فالخلق عبارة عن التقدير وإيجاد الأشياء من عدم، وكل ما كان جسماً أو جسمانياً كان مخصوصاً بمقدار معين فكان من عالم الخلق، وكل ما كان بريئاً عن الحجمية والمقدار كان من عالم الأرواح ومن عالم الأمر، فعالم الخلق في تسخير الله، وعالم الأمر في تدبير الله[(2)]. قال **الفارابي**: "أنت من جوهرين: الأول: مُشَكَّل مُصَوَّر مُكَيَّف مُقَدَّر مُتَحَرِّك ساكن مُتَحَيِّز مُنْقَسِم. والثاني: مباين للأول في هذه الصفات، غير مشارك له في حقيقة الذات، يناله العقل، ويعرض عنه الوهم، فقد جمعتَ من عالَم الخَلْق ومن عالَم الأمر؛ لأن روحك من أمر ربك، وبدنك من خلق ربك"[(3)]. والنواميس الكونية مرتبطة بقيومية الخالقﷻ، ولا تسير بالطبع أو بالعلة، فإذا شاء الله تعالى عطَّل النواميس؛

(1) مفاتيح الغيب: 214/1.

(2) انظر: الرازي: مفاتيح الغيب: 272/14 .

(3) **فارابي** (محمد بن محمد بن طَرْخَان (ت 339هـ)، رسائل الفارابي (كتاب الفصوص)، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد بالهند، ط1/ 1345هـ/1926م: 9 .

بدليل معجزات الأنبياء! والمقصود بالأمر هنا هو الأمر الكوني، فأما الأمر التشريعي فقد جعل الله تعالى للإنسان اختياراً فيه، إما أن يطيع وإما أن يعصي، فهذا الاختيار مرتبط بالتكليف، ويترتب عليه مسؤولية وجزاء، وبناء على هذا فإنَّ للإنسان تصرفاتٍ اختيارية، ولكن ما مدى الاختيار في ذلك، هذا ما نعرفه في الآتي:

1. 5 . مالكية الإنسان وتصرفاته في عالم الخلق والأمر: يعلم الإنسان بأنه لا يملك من نفسه شيئاً، وقد أكد القرآن هذه الحقيقة التي لا يختلف فيها أحد، من ذلك قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [سورة آل عمران: 26]. فالمالك على الإطلاق هو الخالقﷻ، وما يملكه الإنسان فهو بتمليك خالقه. وكذلك لا ينازع الإنسان بأن حركاته اللاإرادية خارج مجال اختياره وحريته، فالإنسان لا يملك لنفسه المرض والشفاء، ولا يملك لنفسه الجوع والعطش، ولا يملك لنفسه الحب والبغض، وغير ذلك من حركات أعضائه ومشاعره، وقد خَّص القرآن هذه الحقيقة بقوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[سورة الأعراف: 188]. فكلمتا النفع والضر نكرتان يفيدان العموم، ولكن هذا العموم مشكل بما هو معلوم بالضرورة من تمكن كل إنسان سليم الأعضاء من نفع نفسه وغيره في بعض الأمور الكسبية، ودفع بعض الضرر عنها؛ ويجاب عن هذا الإشكال بأن الإنسان لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعاً ولا ضراً مستقلاً بقدرته، وإنما يملك ما يملكه من ذلك بتمليك الرب الخالق جلت قدرته، وهو المراد بالاستثناء، أي: لا أملك منهما إلا ما شاء الله من نفع أقدرني على جلبه، وضر أقدرني على منعه، وسخر لي أسبابهما، أو إلا وقت مشيئته سبحانه أن يمكنني من ذلك، فالمعنى المراد على هذا هو بيان عجز المخلوق الذاتي، وكون كل شيء أوتيه فهو بمشيئة الله تعالى، لا يستقل العبد بشيء منه استقلالاً مطلقاً، ولا هو يملكه بذاته لذاته، بل بمشيئة الله تعالى، فالاستثناء على هذا متصل بما قبله، مخصص لعمومه، مقيد لإطلاقه[1].

وإذا كان الإنسان لا يملك من نفسه نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله، فكذلك يتكلم القرآن عن مشيئة الإنسانية، فذكر أنها مرتبطة بمشيئة الخالقﷻ فقال: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [سورة التكوير: 29]. والذي يتبادر إلى الذهن من هذه الآية أنها تنفي الحرية الإنسانية، وليس الأمر كذلك لقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا (29) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [سورة الإنسان: 29. 30]. حيث أثبتتْ الآية الأولى حرية الاختيار، والآية الثانية ربطتها بمشيئة الله تعالى، وهذا الارتباط لا يعني انتفاء الحرية الإنسانية، وإنما هو من باب ذكر فضل الخالق على الإنسان، ذلك الكائن الذي أكرمه على سائر الخلق بالمشيئة، إذْ بها يختار ما يشاء، فقد اقتضت مشيئة الله تعالى أن يكون الإنسان مختاراً بمشيئته التي متعه الله تعالى بها، وأقدره على القيام بما يريد ويختار، فأول الآية يدل على هذا المعنى: ﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً﴾ فهنا ثبت الاختيار للإنسان، فكان قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلا أَنْ يَشَاءَ الله﴾ تذكيراً لهذه النعمة الكبيرة، فلولا مشيئة الله ما استطاع الإنسان أن يشاء[2].

وإذا لاحظنا بَدْأ خلقِ الإنسان ومراحل تطوره، وجدنا أن حريته اكتسبها ممن خلقه، يقول تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [سورة النحل: 78]. فحركات الرضيع غير

(1) انظر: **محمد** رشيد رضا (ت 1354هـ)، . تفسير المنار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1990م: 424/9 .

(2) انظر: **محمد** سعيد رمضان البوطي، الإنسان مسير أم مخير، دار الفكر بدمشق، ط1418/1هـ/1997م: 90. 92.

إرادية، وعندما ينمو ويكبر يتصرف بدوافعه الغريزية، وهو مسيَّر بمشيئة أهله والمحيط الذي يعيش فيه، وبعد السمع والأبصار تتطور حركاته فتنقسم إلى قسمين: حركات إرادية وحركات لا إرادية، ويصير عقلُه يدرك حقائق الأشياء فيختار منها ما يشاء، وعندما يصل الإنسان إلى مرحلة البلوغ باكتمال عقله يجري عليه القلم، أي: يصير مسؤولاً عن تصرفاته، ويترتب على تلك المسؤولية الجزاء، وهذا يعني أن الحرية تستلزم المسؤولية، والمسؤولية تستلزم الجزاء، ولذلك خفف الخالقﷻ بعض الأحكام التشريعية على العبد والأمَة، إذْ إنهما مملوكان لسيدهما. **فإن قيل**: ما هي الحرية التي يتمتع بها الإنسان وكثير من حركاته لا إرادية، وفي مجال الحركة الإرادية محكوم عليه بأنظمة سماوية أو وضعية؟ فأيُّ حريةٍ للإنسان أمام النظام الكوني والنظام التشريعي؟ **يقال**: إنَّ حرية الإنسان التي وهبها الله تعالى للإنسان يجب أن تكون منسجمة مع النظام الكوني، ولأجل ذلك لم يترك الخالقﷻ الإنسان سدى، وإنما أرسل له الرسل بالشرائع والمناهج التي تضبط حريتهم في الحياة، وهذا ما نتكلم عنه في الآتي:

2.5 . حرية الإنسان والقوانين التشريعية:

الإنسان مدني بالفطرة، والاجتماع الإنساني ضرورة؛ ولا تتم مصالح الناس ومعاملاتهم إلا بقوانين يحتكمون إليها، وهذا أمر لا ينازع فيه أحد، فاجتماع الناس على التعاون لا ينتظم إلا إذا كان بينهم معاملة، ولا بد في المعاملة من قانون وعدل[1]. وسنة التدافع في قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [سورة البقرة: 251]. هي التي تنظم الاجتماع الإنساني، وذلك بأن اللهﷻ يدفع بعض الناس عن الهرج والمرج وإثارة الفتن في الدنيا بالأنبياء عليهم السلام، ثم بالأئمة والملوك الذابين عن شرائعهم. وتقريره: أن الاجتماع قد يفضي إلى المنازعة والمخاصمة والمقاتلة، ولهذا لا بُدَّ في الحكمة الإلهية من وضع شريعة بين الخلق، لتكون قاطعة للخصومات والمنازعات، فالأنبياء عليهم السلام الذين أَتَوْا من عند الله بهذه الشرائع هم الذين دفع الله بسببهم وبسبب شريعتهم الآفات عن الخلق، فإذا تمسك الخلق بشرائعهم لا يقع بينهم خصام ولا نزاع، فالملوك والأئمة متى كانوا يتمسكون بهذه الشرائع كانت الفتن زائلة، والمصالح حاصلة، وكما لا بد في قطع الخصومات والمنازعات من الشريعة، فكذا لا بد في تنفيذ الشريعة من السلطان[2]. ومن الآيات الجامعة في هذه المسألة قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [سورة الحديد: 25].

فإن قيل: أليس القوانين والشرائع تحدُّ من حرية الإنسان؛ ذلك أنها ملزمة لفعل ما أو للامتناع عنه؟ يقال: هذا صحيح! وقد عرفنا الحكمة من ضرورة وجود القوانين والشرائع، وهذا لا يتعارض مع تعريف الحرية وهي "قدرة الإنسان على التصرف في ملكه". فعندما يكون هناك قانون يمنع الإنسان من التصرف في ملك الآخرين، فليس فيه مصادرة لحريته؛ لأنه لم يتدخل في ملكه، هذا من جانب، ومن جانب آخر فإن اتباع الأهواء وتحقيق الرغبات الشهوانية والغرائز البهيمية ليست من الحرية في شيء، بل ذلك فساد في الكون، قال تعالى: ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ﴾ [سورة المؤمنون: 71]. فالمسائل لا تسير على هَوَى المخلوق، إنما على مراد الخالق؛ لأن الخالق سبحانه هو صانع هذا الكون، وكلُّ صانع يغَارُ على صَنْعته، وهذا مُشَاهد حتى في صنعة البشر، ولك أنْ تتصوّر ماذا يحدث لو أفسدتَ على صانعٍ ما

(1) انظر: **فارابي** (محمد بن محمد بن طَرْخَان (ت 339ه)، آراء أهل المدينة الفاضلة: د اسم الناشر: د/ط: د/ت: 53، **وسينا** (الحسين بن عبد الله ابن سينا(ت 428ه)، الشفاء (الإلهيات)، راجعه وقدم له الدكتور إبراهيم مدكور، تحقيق الأستاذين الأب قنواتي وسعيد زايد، د/اسم الناشر، د/ط: د/ت: 441/2 .

(2) انظر: الرازي: مفاتيح الغيب: 206/6.

صنعَه، وعدالة الأشياء أن تسير على وَفْق مراد الصانع، لا هوى المصنوع؛ لأن الأهواء تملكها الأغيار، فالإنسان لو سار في حركة حياته على وَفْق هواه لأخذ مَا ليس له، ولَقبل الرشوة، ومال إلى الفِسْق والانحراف؛ لأنه في الظاهر يرى أنه منتفع بهذا ولا ينظر العاقبة والمحصلة النهائية، لقد نظر إلى متعة زائلة موقوته، ونسي تبعة ثقيلة لن يقدر عليها فيما بعد"[1].

فمثلاً لو اتبع الأب هوى ولده وتركه يعلب كما يشاء، دون إكراهه على الدراسة، فإن ولده سيفسد في الحياة، والعكس صحيح، فعندما يقيد حريته لمصلحته، يكون في ذلك نجاحه، فالقوانين عندما تقيد أهواء الفرد فإنها تحميه من أهواء الجماعة، كقوله تعالى في القصاص مثلاً: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [سورة البقرة: 179]. إن في تشريع القصاص استبقاءً للحياة؛ لأنه حين يعرف الناس أنهم عندما يقتلون بريئاً سيُقْتَلون بفعلهم فسوف يمتنعون عن القتل، فكأنهم حقنوا دماءهم، وذلك هو التشريع العالي العادل، فالحكمة من تقنين العقوبة ألا تقع الجريمة، وبذلك يمكن أن تتوارى الجريمة مع العقوبة، ويتوازن الحق مع الواجب[2]. إذن ليس الحرية أنْ يفعل الإنسان ما يريد، بل الحرية أنْ لا يُكْرَه على ما لا يريد! والقرآن يشير إلى هذا المعنى، قال تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [سورة البقرة:256]. وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [سورة يونس: 99]. وقال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ (21) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ﴾ [سورة الغاشية: 21، 22]. فالإنسان حرٌّ في ظل عبوديته لله تعالى، وهذا ما نتحدث عنه في المبحث الآتي:

6 . حرية الإنسان في ظل عبوديته لله:

أشرنا في المبحث السابق أنَّ لحرية الإنسان جانبين: الأول: داخلي، يتعلق بالأهواء والشهوات، والثاني: خارجي، يتعلق بالناس والأكوان، والتحرر من هذين الجانبين: (**الغين والغير**)، لا يتحقق إلا بتسليم الجانب الاختياري للذي يدبِّر الجانب التسخيري في الإنسان، أي: تسليم الإرادة الإنسانية للإرادة الإلهية؛ وذلك بالإيمان بأنْ "لا إله إلا الله"، أي: لا معبود بحق إلا الله تعالى، له وحده تتوجه الإرادة، وبه وحده يستعان، وألا يخرج الإنسان في كل الأحوال والأحيان عن حقيقة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾. والحكمة الربانية ظاهرةٌ في الجانب التسخيري، فكلُّ شيء يقوم بوظيفته على جهة الصلاح والإتقانِ والجمال! قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ (3) ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [سورة الملك: 3، 4]. فإذا أسلم الإنسان لمولاه، وأخلص في عبوديته له، تحرر من هواه وصار إنساناً ربانياً! قال النبيﷺ: (إِنَّ اللهَ قَالَ مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ المُؤْمِنِ يَكْرَهُ المَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَه)[3]. فكلما اقترب العبد من سيده زاده من حُلل الكرامة والسيادة، قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [سورة البقرة: 186]. وقال رسول اللهﷺ: (أَنَا

(1) انظر: **شعراوي** (محمد متولي الشعراوي) تفسير الشعراوي، مطابع أخبار اليوم بالقاهرة، د/ط، د/ت: 16/ 10093 .

(2) انظر: تفسير الشعراوي: 752/2 .

(3) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه: كتاب الرقاق، باب الواضع. **بخاري** (محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري (ت 256هـ)، صحيح البخاري، تحقيق د. مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير بيروت، ط/1987م.

عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي وَأَنَا مَعَهُ حِينَ يَذْكُرُنِي إِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ هُمْ خَيْرٌ مِنْهُمْ وَإِنْ تَقَرَّبَ مِنِّي شِبْرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ بَاعًا وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً)[1].

1.6 . الحرية الداخلية **"التحرر من الهوى"**:

الهوى يعني ميل النفس إلى الشهوة، سمّي بذلك لأنّه يَهْوِي بصاحبه في الدّنيا إلى كلّ داهية، وفي الآخرة إلى الهَاوِيَة، وقد عظّم الله تعالى ذمَّ اتباع الهوى فقال: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً﴾ [سورة الفرقان: 43][2]. والآية الجامعة التي تشير إلى أثر الهوى في النفس، وأنَّ عبادة الله وحده هي السبيل في التحرر من سلطانه قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (40) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ [سورة النازعات: 40، 41]. والمثال الجامع لأثر الهوى في النفس قوله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (175) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [سورة الأعراف: 175، 176]. إنَّ موافقة الهوى تنزل صاحبها من سماء العزِّ إلى تراب الذُّل، وتلقيه في وهدة الهوان، ومَنْ لم يصدِّقْ علماً فعن قريب يقاسيه وجوداً، ومن أخلاق الكلب التعرُّض لمن لم يخفه على جهة الابتداء، ثم الرضاء عنه بلقمة، كذلك الذي ارتدَّ عن طريق الإرادة، يصير ضيق الصدر، سيء الخلق، يبدأ بالجفاء كلَّ بريء، ثم يهدأ طياشُه بنيل كلِّ عرض خسيس[3]. "قال ملك من الملوك لبعض العارفين: تمنى عليَّ! فقال له ذلك العارف: إليَّ تقول! ولي عبدان قد ملكتُهما وملكاك، وقهرتُهما وقهراك، وهما الشهوة والحرص، فأنت عبد عبدي، فكيف أتمنى على عبد عبدي؟!"[4].

6 . 2 . ومن آثار اتباع الهوى:

1.2.6: الضلال: قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ [سورة الأنعام: 56].

2.2.6: الإفراط والتفريط: قال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [سورة الكهف: 28].

3.2.6: التردي في المهالك: قال تعالى: ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى﴾ [سورة طه: 16].

4.2.6: الفساد: قال تعالى:﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ﴾ [سورة المؤمنون: 71].

6 . 3 . ومن آثار **العبادات في تهذيب النفس، والتحرر من أهوائها:**

6 .3 . 1 . أثر الصلاة في النهي عن الفحشاء والمنكر: قال تعالى: ﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [سورة العنكبوت: 45]. ف "العبد إذا صلى لبس لباس

(1) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب الحث على ذكر الله. **مسلم** (مسلم بن الحجاج (ت 216ه)، صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي بيروت، د/ط ، د/ت .

(2) انظر: المفردات في غريب القرآن: الراغب الأصفهاني: مادة هوي.

(3) انظر: **قشيري** (عبد الكريم بن هوازن القشيري (ت 465ه)، لطائف الإشارات، تحقيق إبراهيم البسيوني، الهيئة المصرية العامة للكتاب بمصر، ط3: 587/1.

(4) **عطاء** (أحمد بن محمد ابن عبد الكريم (ت709ه)، لطائف المنن، تحقيق وتعليق الدكتور عبد الحليم محمود، دار المعارف بمصر، ط3: 56.

التقوى؛ لأنه واقف بين يدي الله، واضع يمينه على شماله على هيئة من يقف بمرأى ملك ذي هيبة، ولباس التقوى خير لباس، يكون نسبته إلى القلب أعلى من نسبة الديباج المذهب إلى الجسم، فإذن من لبس هذا اللباس يستحيل منه مباشرة قاذورات الفحشاء والمنكر، ثم إن الصلوات متكررة واحدة بعد واحدة فيدوم هذا اللبس فيدوم الامتناع"[1].

6 .3 . 2 . أثر الزكاة في التزكية: قال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [سورة التوبة: 103]. "فقوله: تطهرهم إشارة إلى مقام التخلية عن السيئات. وقوله: **تزكيهم** إشارة إلى مقام التحلية بالفضائل والحسنات، ولا جرم أن التخلية مقدمة على التحلية، فالمعنى أن هذه الصدقة كفارة لذنوبهم ومجلبة للثواب العظيم، والصلاة عليهم: الدعاء لهم"[2].

6 .3 . 3 . أثر الصيام في التقوى: قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [سورة البقرة: 183]. فالصوم يورث التقوى؛ لما فيه من انكسار الشهوة وانقماع الهوى، فإنه يردع عن الأشر والبطر والفواحش، ويهون لذات الدنيا ورئاستها، وذلك لأن الصوم يكسر شهوة البطن والفرج، فكان ذلك رادعاً له عن ارتكاب المحارم والفواحش، ومهوناً عليه أمر الرياسة في الدنيا، وذلك جامع لأسباب التقوى[3].

6 .3 . 4 . أثر الحج في هجر المنكر: قال تعالى: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [سورة البقرة: 197]. قال **الرازي:** "الحكمة في أن الله تعالى ذكر هذه الألفاظ الثلاثة لا أزيد ولا أنقص، وهو قوله: "فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج"، هي أنه قد ثبت في العلوم العقلية أن الإنسان فيه قوى أربعة: قوة شهوانية بهيمية، وقوة غضبية سبعية، وقوة وهمية شيطانية، وقوة عقلية ملكية، والمقصود من جميع العبادات قهر القوى الثلاثة، أعني الشهوانية، والغضبية، والوهمية: فقوله: **"فلا رفث"** إشارة إلى قهر الشهوانية، وقوله: **"ولا فسوق"** إشارة إلى قهر القوة الغضبية التي توجب التمرد والغضب، وقوله: **"ولا جدال"** إشارة إلى القوة الوهمية التي تحمل الإنسان على الجدال في ذات الله، وصفاته، وأفعاله، وأحكامه، وأسمائه، وهي الباعثة للإنسان على منازعة الناس ومماراتهم، والمخاصمة معهم في كل شيء، فلما كان منشأ الشر محصوراً في هذه الأمور الثلاثة لا جرم قال: "فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج"، أي: فمن قصد معرفة الله ومحبته والاطلاع على نور جلاله، والانخراط في سلك الخواص من عباده، فلا يكون فيه هذه الأمور، وهذه أسرار نفسية هي المقصد الأقصى من هذه الآيات، فلا ينبغي أن يكون العاقل غافلاً عنها، ومن الله التوفيق في كل الأمور"[4].

6 .2 . الحرية **الخارجية "التحرر من الأغيار":**

إذا تحرر الإنسان من هوى النفس فيسهل عليه التحرر من رقِّ الأغيار، أي: التحرر من أسر الناس والأكوان، ويشير إلى هذا النوع من التحرر الخارجي قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: 64]. "إن المعنى الذي يقرره هذا

(1) مفاتيح الغيب: 61/25.

(2) **عاشور** (محمد الطاهر ابن عاشور التونسي)، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر بتونس، د/ط، د/ت: 23/11.

(3) انظر: الرازي: مفاتيح الغيب: 240/5.

(4) مفاتيح الغيب: 319/5.

الكلام الرباني واضح للغاية وصحيح للغاية، ألا ترى إلى الذين كانوا ولا يزالون ينادون بالحرية والتمرد على القيود، وهم معرضون عن واقع عبوديتهم لله عز وجل والإذعان لها، كيف يجعلون من تمردهم على القيود قيوداً وأغلالاً يصفِّدون بها مَنْ حولهم من المستضعفين، وتأمل في حال الأمم والدول التي تتهارج وتتمادى اليوم! أفكان لها أن تفعل ذلك لو أنها خضعت وأذعنت لسلطان عبوديتها لله...؛ لقد تسابقوا إلى الحرية في غيبوبة تامة عن إدراك هذه الحقيقة والإذعان لها، فطمع كلٌّ منهم أن يصبح سيداً ومتنفذاً، ولا يكون الرجل سيداً متميزاً إلا في قوم يكونون عبيداً له، ولا يصبح متنفذاً إلا وسط جماعة تخضع لأوامره وأحكامه، فقام من جراء ذلك الخصامُ الذي لا ينتهي، وانقدح من هذا الخصام نيران التهارج والبغضاء، ولا يخدعنك عن هذا الواقع الشعارات البراقة التي ترتفع للحرية ومصطلحاتها في كل مكان، أو الحريات التي تمارس في نطاق العلاقات الشخصية ضمن دوائر المجتمعات الصغيرة، وفي الحدود التي يرسمها لها قادة تلك المجتمعات، بل تأمل في مصير هذه الحرية من خلال طبيعة العلاقات السارية بين تلك المجتمعات بعضها مع بعض"[1]. لهذا كانت رسل الله عليهم السلام يدعون إلى أنْ يكون الناس ربانيين، متحررين من الأغيار، قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [سورة آل عمران: 79]. "أي: ليس مِنْ صفة مَنْ اخترناه للنبوة واصطفيناه للولاية أن يدعو الخلق إلى نفسه، أو يقول بإثبات نفسه وحظّه، لأن اختياره سبحانه إياهم للنبوة يتضمن عصمتهم عمّا لا يجوز، فتجويز ذلك في وصفهم مناف لحالهم، وإنما دعاء الرسل والأولياء للخلق إلى اللهﷻ، وهو معنى قوله تعالى: «وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ»، أي: إنما أشار بهم على الخلق بأن يكونوا ربانيين، والرّباني منسوب إلى الرب...؛ وهم العلماء بالله، الحلماء في الله، القائمون بفنائهم عن غير الله، المستهلكة حظوظهم، المستغرقون في حقائق وجوده عن إحساسهم بأحوال أنفسهم، ينطقون بالله، ويسمعون بالله، وينظرون بالله، فهم بالله، محو عمَّا سوى الله"[2].

قال رسول اللهﷺ: (وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ)[3]. فإذا باشر الإيمانُ القلوبَ تحررت من كل السلاطين، ولم ترَ لشيء حقيقة وجودية إلا بالله تعالى الحيِّ القيوم، وشعارها يصبح قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [سورة الأنعام: 91]. فكلُّ شيءٍ لا يتصل بالله باطل، وإلى هذه الحقيقة أشار النبيﷺ في ثنائه على كلمة لَبيد، قال: (أَصْدَقُ كَلِمَةٍ قَالَهَا الشَّاعِرُ كَلِمَةُ لَبِيدٍ: أَلاَ كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلاَ الله بَاطِل)[4]. ولنتأمل في شأن سحرة فرعون الذي آمنوا بموسىعليه السلام، كيف تحرروا ـ باتباع الحق ـ من سلطان فرعون واستعباده، قال تعالى: ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى (70) قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى (71) قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [سورة طه: 70. 72]. جاء هذا الموقف بعد أنْ عرفوا عزَّ الربوبية الحق، وليست العزة المزيَّفة التي كانوا يرفعون شعارها تحت الإكراه والاستضعاف، فهؤلاء السحرة أنفسهم هم الذين ألقوا حبالهم وعصيهم راجين الغلبة بعزة فرعون، قال

(1) الدكتور البوطي: حرية الإنسان في ظل عبوديته لله: 27.

(2) القشيري: لطائف الإشارات: 253/1.

(3) تقدم تخريجه كاملاً.

(4) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب المناقب، باب أيام الجاهلية.

تعالى: ﴿فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾ [سورة الشعراء: 44]. لا شك أنهم لم يكونوا معتقدين حقيقة هذه العزة، بدليل قولهم بعد إيمانهم بالحقيقة: "وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ". هكذا يصنع الإيمان بالله تعالى في النفس الإنسانية، يحررها من ذلِّ عبودية الخلق، إلى عبودية الخالق، وهي حقيقة كونية قبل كونها حقيقة شرعية! قال عمر بن الخطابﷺ: "إِنَّا كُنَّا أَذَلَّ قَوْمٍ فَأَعَزَّنَا الله بِالإِسْلامِ فَمَهْمَا نَطْلُبُ الْعِزَّةَ بِغَيْرِ مَا أَعَزَّنَا الله بِهِ أَذَلَّنَا الله"[1]. وقال ربعي بن عامر لرستم: "وَالله جَاءَ بِنَا لِنُخْرِجَ مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادَةِ الْعِبَادِ إِلَى عِبَادَةِ الله، وَمِنْ ضِيقِ الدُّنْيَا إِلَى سِعَتِهَا، وَمِنْ جَوْرِ الأَدْيَانِ إِلَى عَدْلِ الإِسْلامِ"[2].

7 . الخاتمة:

بعد البحث في معنى الحرية والمسائل المرتبطة بها نلخص أهم المسائل والنتائج في النقاط الآتية:

أولاً: إنَّ مسألة حرية الإنسان مبنية على الحقائق الوجودية، ابتداء من مسألة الألوهية، فالقضاء والقدر والمشيئة الإنسانية، فالأسباب والمسببات...إلخ. والإنسان يخضع للنظام السنني في الكون، ومحكوم عليه في المبدأ والمعاد، وكثير من حركاته اللاإرادية، وأن الخالق هو الذي وهبه الاختيار، وكلَّفه وحمَّله المسؤولية، ورتبَّ على ذلك الثواب والعقاب.

ثانياً: الحرية مبنية على العلاقة بين الخالق والمخلوق، **فهي علاقة ربوبية وعبودية**، فالخالق هو الرب، والمخلوق هو العبد، وقد أشار القرآن إلى أن الذي يخلق هو الذي يُعْبَد وحده، فالخالقية تقتضي العبودية، فالإنسان عبد لله، كوناً وشرعاً، وقد أكد القرآن ذلك في مواضع كثيرة، فالعبودية الخالصة لله تعالى هي المقام الأعلى الذي يناله الإنسان، وكلما ارتقى بعبوديته تحرر من الأغيار، ومن أسْرِ الأهواء والشهوات.

ثالثاً: العبد على ضربين: عبد بالإيجاد والتسخير، وذلك يطلق على كل أحد، وعبد على طريق التخصيص، فعلى الثاني: يصح أن يقال: فلان ليس عبداً، وعلى هذا قيل: فلان عبد الهوى، وعبد الشهوة، وعبد الطاغوت.

رابعاً: عبودية الإنسان لله تختلف تماماً عن عبودية الإنسان للإنسان، ذلك أن الإنسان يمتلك العبد فيسخره لنفسه، أما الله تعالى فهو الذي خلق الإنسان، وجعل له السمع والبصر والفؤاد وغير ذلك من وسائل الإدراك، وخصَّه بالمشيئة التي صار بها حراً دون سائر المخلوقات، وسخر له المكوَّنات، إلى غير ذلك من النعم التي لا تحصى ولا تعد! **فعطاء الربوبية سابق على ولاء العبودية**، وكلما كان العبد قريباً من ربه خصَّه بمزيد من نعمه.

رابعاً: النظام التشريعي وتكليف الإنسان لا يتعارض مع حريته، لأن الحرية قدرة الإنسان على التصرف في ملكه، والنظام التشريعي إنما ينظم العلاقات بين الناس حتى لا يتعدى أحد على حرية الآخر، فالتشريعات تحفظ الحريات ولا تتعارض معها.

خامساً: الحرية الحقيقية هي التحرر من رقِّ الأغيار وأسر الهوى والشهوات، وأكثر الناس لا يفقهون هذه الحرية، لأنها متعلقة بصدق العبودية لله تعالى، فكلما كنت عبده حررك من عبودية الآخرين، وهذا هو المعنى الذي أردناه من هذا البحث.

---

(1) عَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ، قَالَ: "خَرَجَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ إِلَى الشَّامِ وَمَعَنَا أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ فَأَتَوْا عَلَى مَخَاضَةٍ وَعُمَرُ عَلَى نَاقَةٍ لَهُ فَنَزَلَ عَنْهَا وَخَلَعَ خُفَّيْهِ فَوَضَعَهُمَا عَلَى عَاتِقِهِ، وَأَخَذَ بِزِمَامِ نَاقَتِهِ فَخَاضَ بِهَا الْمَخَاضَةَ، فَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْتَ تَفْعَلُ هَذَا، تَخْلَعُ خُفَّيْكَ وَتَضَعُهُمَا عَلَى عَاتِقِكَ، وَتَأْخُذُ بِزِمَامِ نَاقَتِكَ، وَتَخُوضُ بِهَا الْمَخَاضَةَ؟ مَا يَسُرُّنِي أَنَّ أَهْلَ الْبَلَدِ اسْتَشْرَفُوكَ، فَقَالَ عُمَرُ: أَوَّهْ لَمْ يَقُلْ ذَا غَيْرُكَ أَبَا عُبَيْدَةَ جَعَلْتُهُ نَكَالًا لِأُمَّةِ مُحَمَّدٍﷺ إِنَّا كُنَّا أَذَلَّ قَوْمٍ فَأَعَزَّنَا اللَّهُ بِالْإِسْلَامِ فَمَهْمَا نَطْلُبُ الْعِزَّةَ بِغَيْرِ مَا أَعَزَّنَا اللَّهُ بِهِ أَذَلَّنَا الله" . أخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين: كتاب الإيمان. **حاكم** (أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله (ت: 405هـ)، المستدرك على الصحيحين، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية ببيروت، ط1/1411هـ/1990م.

(2) **طبري** (محمد بن جرير أبو جعفر الطبري (ت310هـ)، تاريخ الطبري، دار التراث بيروت: 520/3 .

قائمة المراجع:

❁ القرآن الكريم

❁ بخاري (محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري (ت 256هـ)، صحيح البخاري، تحقيق د. مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير ببيروت، ط/1987م.

❁ حاكم (أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله (ت: 405هـ)، المستدرك على الصحيحين، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية ببيروت، ط1/1411هـ/1990م.

❁ رازي، (محمد بن عمر أبو عبد الله فخر الدين الرازي (ت 606هـ)، مفاتيح الغيب، دار الفكر بيروت: د/ط د/ت.

❁ راغب (أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (ت 502هـ)، المفردات في غريب القرآن، تحقيق صفوان عدنان الداودي، دار القلم والدار الشامية بدمشق وبيروت، ط1/ د/ت.

❁ راغب (أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (ت 502هـ)، الذريعة إلى مكارم الشريعة، تحقيق الدكتور أبو اليزيد العجمي: دار الوفاء بالمنصورة: ط2: د/ت.

❁ زبيدي (محمّد بن محمّد مرتضى الزَّبيدي (ت 1205هـ)، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق مجموعة من المحققين، دار الهداية.

❁ زمخشري (محمود بن عمر أبو القاسم جار الله الزمخشري (ت 528هـ) الكشاف، دار الكتاب العربي ببيروت، ط3/ د/ت.

❁ سينا (الحسين بن عبد الله ابن سينا(ت 428هـ)، الشفاء (الإلهيات)، راجعه وقدم له الدكتور إبراهيم مدكور، تحقيق الأستاذين الأب قنواتي وسعيد زايد، د/اسم الناشر، د/ط: د/ت.

❁ شعراوي (محمد متولي الشعراوي) تفسير الشعراوي، مطابع أخبار اليوم بالقاهرة، د/ط، د/ت.

❁ عاشور (محمد الطاهر ابن عاشور التونسي)، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر بتونس، د/ط، د/ت.

❁ عطاء (أحمد بن محمد ابن عبد الكريم (ت709هـ)، القصد المجرد في معرفة الاسم المفرد، مكتبة مدبولي بالقاهرة، ط2002/1م.

❁ عطاء (أحمد بن محمد ابن عبد الكريم (ت709هـ)، لطائف المنن، تحقيق وتعليق الدكتور عبد الحليم محمود، دار المعارف بمصر، ط3.

❁ غزالي (محمد بن محمد أبو حامد الغزالي (ت 505هـ)، إحياء علوم الدين: دار المعرفة ببيروت، 1402هـ/1982م.

❁ فارابي (محمد بن محمد بن طَرْخَان (ت 339هـ)، آراء أهل المدينة الفاضلة: د اسم الناشر: د/ط: د/ت.

❁ فارابي (محمد بن محمد بن طَرْخَان (ت 339هـ)، رسائل الفارابي (كتاب الفصوص)، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد بالهند، ط1/ 1345هـ/1926م .

❁ طبراني (سليمان بن أحمد الطبراني (ت: 360هـ)، المعجم الكبير، تحقيق فريق من الباحثين بإشراف وعناية د سعد بن عبد الله الحميد ود خالد بن عبد الرحمن الجريسي.

❁ طبري (محمد بن جرير أبو جعفر الطبري (ت310هـ)، تاريخ الطبري، دار التراث بيروت.

❁ قشيري (عبد الكريم بن هوازن القشيري (ت 465هـ)، لطائف الإشارات، تحقيق إبراهيم البسيوني، الهيئة المصرية العامة للكتاب بمصر، ط3.

❁ قشيري (عبد الكريم بن هوازن القشيري (ت 465هـ)، الرسالة القشيرية، تحقيق الإمام الدكتور عبد الحليم محمود، والدكتور محمود بن الشريف: دار المعارف، القاهرة.

❁ محمد رشيد رضا (ت 1354هـ)، . تفسير المنار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1990م.

❁ محمد سعيد رمضان البوطي، الإنسان مسير أم مخير، دار الفكر بدمشق، ط1/1418هـ/1997م.

❁ مسلم (مسلم بن الحجاج (ت 216هـ)، صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي بيروت، د/ط ، د/ت .

❁ نسفي (أبو البركات عبد الله بن أحمد النسفي (ت 710هـ) مدارك التنزيل وحقائق التأويل، حققه وخرج أحاديثه يوسف علي بديوي، راجعه وقدم له محيي الدين ديب مستو، دار الكلم الطيب، بيروت، ط1/ 1419هـ/ 1998م.